

جُنْدُ اللَّيْلِ

كَانَ نِظَامُ الْمَلِكِ أَبُو عَلِيٍّ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ
الطُّوسِيُّ وَزِيْرًا لِلْمَلِكِ أَلْبُ أَرْسَلَانَ
السَّلْجُوقِيِّ، ثُمَّ صَارَ مِنْ بَعْدِهِ وَزِيْرًا لَوْلَدِهِ أَبِي
الْفُتُوحِ مَلِكِ شَاهٍ.

وَكَانَ نِظَامُ الْمَلِكِ عَالِمًا بِالْحَدِيثِ وَالْفِقْهِ،
وَمُكْرِمًا لِلْعُلَمَاءِ غَايَةَ الْإِكْرَامِ. «فَلَمْ يَكُنْ مِنْ
أَوَائِلِ الشَّامِ - مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ - إِلَى سَائِرِ
الشَّامِ الْأَعْلَى وَدِيَارِ بَكْرِ وَالْعِرَاقَيْنِ^(١) وَخُرَاسَانَ

(١) البصرة والكوفة.

بأقطارها^(١)، إلى سَمَرْقَنْدَ من وراء نهر جِيحُونَ،
مسيرة مائة يومٍ : حاملٌ عِلْمٍ ، أو طالبُهُ ، أو
متعبِّدٌ أو زاهدٌ في زاويته إلا وكرامته شاملةٌ
له وسابغةٌ عليه .

وكان الذي يُخْرِجُ من بيوت أمواله في هذه
الأبواب ستمائة ألفِ دينارٍ في كل سنة! .
ومرة قال أبو الفتوح ملك شاه لوزيره نظام
الملك :

«يا أبتِ^(٢) بلغني أنك تُخْرِجُ من بيوت
الأموال كل سنة ستمائة ألفِ دينارٍ إلى مَنْ لا
يَنفَعُنَا ولا يُغني عنا؟! .

(١) خراسان تطلق على مدن كثيرة، أعظمها: مرو، ونيسابور،
وبلخ، وهراة .

(٢) كان أبو الفتوح يخاطب وزيره نظام الملك بهذا اللقب
تكريماً لكبر سنّه، ولتفاني نظام الملك في المحافظة على
الدولة ولحفظه ودّ أبيه ألب أرسلان .

فبكى نظامُ المُلكِ وقال له :

يا بُنيَّ أنا شيخٌ أعجميُّ لو نُوديَ عليَّ فيمن
يزيد لم أحفظ خمسةَ دنانير^(١)! وأنت غلامٌ
تركيُّ لو نُوديَ عليك عساک تحفظ ثلاثين ديناراً!
وأنت مشتغلٌ بلذاتك مُنهمكٌ في شهواتك،
وأكثر ما يصعد إلى الله تعالى معاصيك دون
طاعتك .

وجيوشك الذين تُعدُّهم للنواب إذا احتشدوا
كافحوا عنك بسيفٍ طوله ذراعان، وقوسٍ لا
ينتهي مرماه ثلاثمائة ذراع، وهم مع ذلك
مُستغرقون في المعاصي والخُمور، والملاهي
والندماء والطُّنُور! .

وأنا أقمتُ لك جيشاً يُسمى «جيش الليل» إذا
نامت جيوشك ليلاً قامت جيوشُ الليل على

(١) يريد: لا يساوي ثمنه خمسة دنانير.

أقدمهم صُفوفاً بين يدي ربّهم، فأرسلوا
دُموعهم، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم، ومدّوا إلى
الله أكفّهم بالدعاء لك ولجيشك .

فأنت وجيوشك في خِفاتِهم^(١) تعيشون،
وبدعائهم تبيتون، وبيركاتهم تُمطرون وترزقون،
تمرّق سهامهم إلى السماء السابعة بالدعاء
والتضرّع!

فبكى أبو الفتوح بكاءً شديداً ثم قال:
شاباش يا أبتِ شاباش^(٢). أكثر من هذا
الجيش^(٣).

(١) أي: حمايتهم، ومنه: المخفر، لأنه مكان الحفظ والحماية.

(٢) كلمة فارسية معناها: أحسنت.

(٣) من «سراج الملوك» لأبي بكر الطرطوشي .